هل الانسان حرُّ الارادة

وهي محاورة بين الاضطرار والاختيار

قال الباحث ابن العصر: وما انقضَّ ديوان المطاعم والكمائم[1] حتى تناقل ذكرهُ الغادي والرائح فتحاشد الانصار للفريقين واشتدَّ استمساكهم بعرى المذهبين وتأجَّجت بينهم نار الجوار حتى كانهم في سعير النجار. وحدث بينما انا اعابر بين ادلَّة المطاعم والكمائم اذا قائل ان في المكتب مجمعاً يخصّ هذا المطلب فهدوت نحو المجمع كالبرق او اسرع فاذا اثنان من اهل الوقار يقال لاحدهما الاضطرار وللآخر الاختيار قد انتصر اولهما للطاعم والآخر للكمائم واشرعا للبحث الاسنَّة واطلقا للادلَّة الاعنَّة

فقال الاضطرار دأبي قول الحق وفخري الانصاف فلست انكر ان الكمائم قد اسبغ ذيل الادلَّة في جوابه على الطاعم واوفى مذهبهُ اكثر حقٍّ[2] ولا انكر ان في ما اعترض به على الطاعم اعتراضات قوية لم يتيسَّر دفعها بعدُ. غير اني أنكر عليه الاستدلال بادلَّة اخرى مردودة كان الجدير به ان لا يعرّض بذكرها حرصاً على صيته وتعزيزاً لمذهبه. إنَّ مَنْ يجعل القصبة المرضوضة ركنهُ ويطاعن بالنصال المكسورة يثلُّ عرش عزّه بيده

قال الاختيار. لولا اني سبقتَ فانصفتَ في الاعتراف بالبعض من ادلَّة الكمائم لصمتُّ عن معارضتك في الكل. اما الآن وقد بدا منك الخلوص فارغب اليك ان تبيّن المردود من ادلَّة ذلك المنهل المورود لعلَّك تشفي غليلاً او تهدي ضليلاً

ض. أجل فخذ ذاك مني على مجمل. اني انكر على الكمائم قولهُ "واما قوى النفس (للفصل عن القوى المادية) فلا تقاس بقياس ولا يتصوَّر قبولها للقياس". وانكاري لذلك مبنيٌّ على الواقع لا على التخمين فانهم استنبطوا منذ يسير آلتين يقاس بهما الفكر كما تقاس قوة الحرارة بالثرمومتر وقوة الجاذبية بآلة أتوُد. فالى اراهُ يختلق المقدّمات كانها حقائق. ويبني عليها حصون النتائج الواهية ثم يناضل من تلك الحصون أيزعم انهُ يفحم اطواد الحق كأنَّ الحق حاجز غير حصين. على انهُ اذا اعتذر فقولهُ هذا يغتفر ولا سيما لان ذاك الاستنباط حديث العهد بطيء الشيوع. واما ما لا اريّة فيه من التعسُّف والاستبداد فقولهُ مستهتراً بغيره "فان كنت يا هذا تسلّم بان قوة الوقود لا يمكنها ان تدير السفينة من نفسها بل لا بدَّ لها من ناخذاة يديرها فلِمَ لا تسلّم بان قوّة الطعام وغيره لا تدير سفينة الجسد من نفسها بل لا بدَّ لها من ناخذاة النفس يديرها كيف شاء" وقولهُ في محلٍّ آخر ان النفس ان كانت قوّة مادية فالانسان "لا يفعل فعلاً من تلقاء اختياره بل انهُ كالآلة تتغالب عليها القوّات فالتي تغلب

(١) انظر وجه ١٦١ و١٦٣ من هذه السنة (٢) الدلائل على تجرُّد جوهر النفس كثيرة وما ذكرناهُ انهى من اشهرها

تدبرها اه" فكأن صاحبك هذا يزعم انهُ اذا شهد له وجدانهُ المختل بامرٍ وجب على الملا ان ينكر الحقّ ويعتصم بالغلط اعتمادًا على وجدانهِ وثقةً بايمانهِ . فبئس هذا الزعم وتبًّا لمن يدّ عنقهُ لنير الوهم

ج . اراك قد عدلت ولكن عن محجّة الصواب أفتزعم ان الانسان والآلة سيّان في العمل أو تنكر علينا حرّيّة الارادة كما انكر صاحبك النفس . انّا لم نفرق الانسان عن ريح تثور او عجلة تدور

ض . مهلاً يا صاح فنحن اذا ملنا لم نمل كل الميل . انك اذا دخلت ديار الفلسفة من ابوابها علمت ان قولي غير حديث فهو من المباحث التي طال عهدها[1] ودقّ العلماء في نقدها . فلما انجلت شمس الحق للانام وانقشعت عن سماء اليقين سحائب الاوهام اذا الانسان عبد قد طلع من هذه الارض باجتماع عناصرها واتجاه قواها . فهو معمول لقواها يجري اذا ساقتهُ ويقف اذا اوقفتهُ ولا حرّية لهُ الاّ التي يزينها لهُ وهمهُ او تغرّهُ بها امانيهِ

ج . اني اراك تكيل القول جزافًا وتباين الحق اعتسافًا فمهما انكرت من حرّية الارادة فلا يسعك ان تنكر اني حرٌّ في تحريك بعض اعضائي على الاقل فما بالك تقول ان وجداني وهم وحريتي غرور

ض . لم اجازف في المقال ولكنك انت قاصر في الاستدلال مقتصر على ظواهر الاحوال فليس ما تحسبهُ حرًّا من الحركات والافعال حرًّا في الحقيقة بل كلما زدنا في البحث استقصاء علمنا ان الانسان عبد للضرورة لا حرٌّ مختار . فاذا رابك شيءٌ ممّا ذكرتُ فلا ريب عندي انهُ يتحقّق عندك بما سأوردهُ عليك من الادلّة

اولاً . الشائع ان بعض اعضاء الانسان يتحرّك من نفسهِ مستقلاً عن ارادتهِ وبعضها يتحرّك تحت حكم ارادتهِ فالحركات الأولى قسريّة او ضرورية او آلية لانها تتمّ كما تتمّ حركات الآلة اراد الانسان ام لم يُرِد والثانية ارادية لانها تتمّ بارادة صاحبها على زعمكم . فمن الحركات الاولى خفقان القلب ونبضان الشرايين وحركة المعدة والامعاء في هضم الطعام وانقباض القزحية ليضيق بؤبؤ العين في الضوء فيقلّ الضوء الداخل منهُ الى العين وغير ذلك من الحركات التي ليس من غرضي استيفاؤها هنا . فهذه الحركات لا يحكم عليها الانسان بل تحصل بانقباض العضلات وانبساطها على ما تفعل بها القوة العصبية متولّدةً في المراكز العصبية ومتنقلةً على الياف الاعصاب حتى تنتهي الى دقائق العضلات . فتعمل هذه الاعضاء

(١) هذه المسئلة كثر البحث فيها بين الصدوقيين والفريسيين من اليهود وبين الابيكوريين والرواقيين من فلاسفة اليونان . وبين القدرية وجمهور الائمة من العرب . وبين فلاسفة المنود . وبين فلاسفة النصارى في الاجيال الوسطى . وبين الاختياريين من فلاسفة المتاخرين مثل كوزن وجفروا بفرنسا وكنت بجرمانيا وتيان وبلدسر باميركا وسشورت وهملتن في بلاد الانكليز وبالجملة جمهور فلاسفة المتاخرين وبين الاضطراريين منهم مثل ليبنتز ولك وهبس وكلّس وادوردس وبريستلي وهرتلي وهيوم ومل وجمهور الماديين في هذا الزمان . ولا يخفى ان المحاور هنا ينطق بلسان الماديين لا سائر الاضطراريين

اعمالها كما تعمل الآلة وانما تختلف عن الآلة بكونها تدور وتصلح نفسها من نفسها فالمعدة كالرحى تدور بنفسها والقلب كالمضخّة تدفع الماء من نفسها . فلا سلطان لك عليها ولا ارادة فيك تبطل اعمالها * ومن الحركات الثانية التي تزعمها طوع امرك ومحكومة ارادتك مدّ الانسان يدهُ ليتناول شيئًا او نقل رجلهِ ليجتنب امرًا او فتح فمهِ ليفوه بكلمة او هزّ راسهِ او رفع حاجبهِ الى غير ذلك من الحركات التي نسمّيها اختيارية وما هي الاّ ضرورية[1] وما صاحبها الاّ آلة تسوقهُ الدواعي الخارجة فيديرها كما ان الثقل يدير الساعة فتدور والماء يتسلسل من الناعورة فتتحرّك

ثانيًا . اراك تستغرب تقريري لمقالي كاني ابيت الاّ المباهاة بالمباهتة . تاعلم اننا لا نعمل عملاً الاّ مطاوعةً لعاملٍ خارج عنا يعمل ذاك العمل بنا . والاّ فان كنا نعمل ما نعمل بحكم جوهر مستقل فينا — هو الارادة — فاثبت لا تنكر ان مقرّ ذلك الجوهر في المخ من الدماغ[2] والمخ آلته فاذا زالت تلك الآلة تعذّر على الارادة ان تعمل اعمالها ولذلك يلزمك التسليم انهُ اذا زال المخ من الدماغ بطل عمل الارادة واختفت عنا ظواهرها . على انك اذا نزعت المخ من دماغ الضفدع فابطلتَ عمل ارادتها ثم لمستَ موضعًا في ظهرها نفّت مرتاحةً الى ذلك كما تنفّ لو كان دماغها صحيحًا . واذا وَخَزْتَ عضوًا منها قفزت واتجه قفزها حسبما يقضي هذا الوخز . واذا وضعت الطعام في فمها ابتلعتهُ وعاشت بهِ . واذا اطلقتها في الماء سبحت فيهِ حتى تمس قوائمها اليابسة فتقف عليها . واذا وضعتها على كفّك استقرّت عليهِ بلا حراك ما دامت لا يهيجها مهيجٌ . واما اذا ملتَ كفّك ميلاً لطيفًا حتى تميل بها فانها تنقل يديها الى خلاف جهة ميلها لكي لا تقع . وما دمت تميل كفك فانها تنقل رجلاً ثم اخرى كانها لا تبدي حركة الاّ بتمام اختيارها وجزم ارادتها حتى تستقر متوازنةً على حرف كفك ثم لا تزال تنتقل كذلك الى قفا راحتك اذا قلبت يدك[3] فقُلْ لي باي ارادةٍ تفعل الضفدع ما تفعل بعد انتزاع مخها وتعطُّل قوة ارادتها . ولمَ تنفّ لولا ان يكون اللمس يهيج القوة العصبية فيها فتنتقل من مراكزها الى عضلات الصوت فيها فتصوت كما يصوت الوتر اضطرارًا اذا ضُرِب والحجر اذا قُرِع . ولمَ تسبح اذا أُطلِقت في الماء لولا ان الماء يهيج القوة العصبية في جسدها فتنبض عضلات بدنها وتبسطها فتسبح كما يدور "الخُذروف بتابع كفي الوليد" . ولمَ تنقل يدًا فرجلاً اذا مالت الكف بها لولا ان ارتفاع الموازنة من بين اعضائها ورجحان جانب منها على جانب يؤثّران في اعصابها بحيث تؤثّر الاعصاب في عضلاتها . والعضلات ترد باقي جسدها الى الموازنة لا بارادةٍ من الضفدع بل بمجرّد القوة العصبية المودعة فيها وتوجّه تلك القوّة بالمؤثّرات الخارجية الى قضاء الافعال المطلوبة

(١) كما ذهب ديكارت في الحيوانات العجم ثم قام العلاّمة هكسلي في هذه الايام واطلق هذا الحكم على الانسان ايضًا (٢) هذا راي جمهور الفيسيولوجيين . وتسهل هذه المباحث على المطالع اذا امعن النظر في مراجعة وظائف الدماغ على ما فصلناها في السنة الرابعة من المقتطف (٣) اول من اثبت ذلك العلامة كلتز

ثالثاً . ولا تزعم ان ما ذكرته لك مقصور على الضفدع فاني لا استثني منه حيواناً . ودليلك في السمك انك اذا نزعت مخ السمكة من دماغها واطلقتها في الماء سبحت فيه واذا عارضها معارض حادت عنه الى حيث لا معارض كانها تفعل ذلك باختيارها وارادتها والحال انها عارية عن الارادة والاختيار . وانما تجتنب المعارض من تلقاء طبعها اذ لا استطاعة لها على غير ذلك * ودليلك في الطير انك اذا نزعت مخ حمامة من دماغها ولحت جذوة من النار امام عينيها رأيتها تميل رأسها من ناحية الى ناحية ناظرة الى الجذوة . او وضعت ذبابة على راسها طردت الذبابة عنها . او قلبتها على ظهرها عادت للعين واقفة على رجليها . او اوقفتها على كرسيّ ومشت عليه فجاءت تدنو من حافته وتكاد تهوي الى الارض ترفرف بجناحيها حتى توطّد وقفتها . كل ذلك وهي عُطُل من الارادة كما هو مسلّم بالاجماع . فانت تدّعي ان الانسان اذا طرد الذبابة عن وجهه طردها بارادته واذا اوشك ان يهوي عن شفا جرف هار ثم لم قوّمه واحكم وقفته انه يحكمها باختياره وارادته وتضحك مني اذا انكرت عليك ذلك وقلت انك تدّعي بلا دليل وترجّح من غير مرجّح * ولو شئت ان استوفي لك ما اثبته العلماء[1] الاعلام بما جرّبوه في الارانب والكلاب وغيرها لضاق بنا المقام واضجرنا الجاحة فخذ مني خلاصة ما يستفاد منها : ان هذه الحيوانات تفعل بالاضطرار ما تنسب انت فعله الى الارادة والاختيار فهي آلات تدور وتصلح نفسها بنفسها

رابعاً . اراك تهمّ بمعارضتي كأنك تقصد ان تحجّني بانه اذا صدق ذلك على الحيوان الاعجم لم يلزم صدقه على الحيوان الناطق (اي الانسان) لان ارادة الانسان غير ارادة الحيوان فامهلني يسيراً اقنعك بان ما تقدّم يصدق على الحيوان الناطق كما يصدق على الاعجم . أما شاع وملأ الاسماع ان ضابطاً فرنسوياً شُدِخ راسه في كراقلت فافضى به ذلك الشدخ الى عارض حكم منه بعض فطاحل العلماء[2] ان الانسان عبدٌ مضطرٌ لا حرٌ مختار . فكان اذا جاءه العارض يفقد كلّ ما تدعوه ارادة ويصير آلة محضة تديره كيف شئت . فاذا شئت ان ترى عليه الكبرياء والخيلاء وضعت يدك على قمة راسه فيفتنس ويشمخ بانفه وتبدو على وجهه كل علامات الافتخار حتى تظنه شخص الكبرياء . واذا شئت ان ترى عليه الانضاع وانخناض الجانح احببت راسه الى الامام وعطفت قامته عطفاً لطيفاً فيخشع ويتذلل وينفعل بكل ما تفعله النفس في الانضاع والانكسار . واذا شئت ان يصوّر امراً لم تحج الاّ الى الاشارة اليه كأن تقول له ما هذا الحيوان الذي امامك فيجيبك على الفور كلب او ذئب او بقرة او شاة حسب توجيه المسئلة اليه . ثم اذا خلت وما هذا الحيوان الآن وهوّلت بلفظ "الآن" حتى يظنّك مرتعباً قال ذئب . واذا قلت

---

(١) قد ذكر هذه التجارب كثيرون من العلماء كفلورنس ولنجه وفلبيان وفرير وكاربنتر . وقد ذُكِر طرف منه في وظائف الدماغ في السنة الرابعة من المنتطف (٢) العلاّمة هكسلي الانكليزي . والعارض قال الدكتور كربنتر انه يشبه الهينوتسم وهي ضرب من الغيبة اكتشفها برَيد . وقد ذُكرت بعض اوصافها في المقتطف

وما لونهُ وهوّلت بالسؤال قال اسود . ثم اذا سألت عن الحيوان بصوت انيس قفلت وما هذا الآن ورخّمت الصوت على الآن قال خروف وهو مسجح . واذا سألت كذلك عن لونهِ قال ابيض او ذكر لوناً مسجّحاً . وبالاجمال كان ذلك الضابط آلة بيد سائلهِ يصوّر ما يصوّرهُ له ويفعل ما يطلب فعلهُ منهُ فكانهُ الدولاب تديرهُ فيدور وتسكنهُ فيسكن * ولا نقل ان هذا الانسان شاذٌّ والشاذ لا يُبنى عليهِ حكمٌ فاني اعلم الوفاً مثلهُ ولو امعنتَ النظر في احوال البشر لوجدتهم كلّهم مثلهُ . انظر الى رجلٍ يركع على ركبتيهِ ثم يقف ويقرع صدرهُ بيدهِ ويسترحم ويستغفر ويتم ما عليهِ من الفروض فتحسب انهُ يفعل ذلك بقصدهِ وارادتهِ ولا يبعد انهُ كان يفعل كلّ ما يفعل وعقلهُ مشتغل بما لا يتعلّق بصلواتهِ وقصدهُ وارادتهُ مشتغلان بامورٍ أُخَر غير ما كان يتلوهُ من الاقوال ويفعلهُ من الافعال كما قيل "هذا الشعب يقترب اليّ بفيهِ واما قلبهُ فيبتعد عني بعيداً" فلو كانت افعال الانسان باختيارهِ وارادتهِ لكان لا يفعل الاّ ما تشغل بهِ ارادتهُ والحال انهُ قد يفعل افعالهُ وارادتهُ مشتغلة بغيرها . أليس زعمك بالارادة وحريتها وهيَ اساسهُ قلة البحث والمجازفة في الحكم او ليس الانسان آلة بيد الفواعل الخارجية وعواطف النفس وشهواتها — التي ليست الاّ اهتزازاً في جواهر الدماغ —[1] يعمل حسبما تقتضي ويجيب على ما تدعوهُ اليهِ وهو صاغر ذليل لا قوة لهُ على المقاومة ولا جرأة على المخالفة[2] وقس على المثال الذي قدّمتهُ لك باقي افكار الناس واعمالهم

خامساً . لا تقل اني اجد من نفسي القوة والجزم بالموافقة على بعض الامور او المخالفة فيها فانا قادر ان اتكلّم وان لا اتكلّم وان اتحرّك وان لا اتحرّك وان امشي وان لا امشي بخلاف ما اجد في نفسي من جهة الاعمال الضرورية التي لا ارادة لي فيها ولا قوة لي عليها . فان ذلك من الاوهام السائرة كما توهّم الناس دوران الشمس وثبوت الارض . والحقيقة تجلي لك في ما سأبسطهُ بوجه الاختصار عن مذهبي في الارادة . فاقول

اذا اردتُ ان اضرب كان في نفسي امران صورة حركة الضرب واشتهاء وقوع تلك الحركة . واذا اردت ان افكر في شيء كان في نفسي امران صورة ذلك الشيء واشتهاء بقائهِ في ذهني . فالارادة مؤلّفة من عنصرين صورة عقلية للفعل وشهوة — او ميل — او رغبة كما تشاء ان تسميها — في وقوع ذلك الفعل[3] . ولا بدّ لهذه الارادة من علّةٍ توجدها كما انهُ لا بدّ لدوران الآلة من قوّة تديرها اذ الارادة ليست الاّ صورةً وشهوة في النفس وهاتان لا توجدان الاّ بعلّة توجدها . فاذا اردت ان تضرب زيداً فارادتك معلولة لعلّة أُخرى هي بعضك لهُ او انتقامك منهُ او ما اشبه . وهذه العلل او هذه الحركات او الدواعي التي

(١) هذا مذهب الماديين (٢) هذا مذهب الاشتراكيين وعليهِ يجعلون اصلاح حال الهيئة الاجتماعية قائماً بتهذيب افرادها وتعليمهم وتحسين احوالهم وظروفهم على خلاف النظام الحاضر . انظر النهلست في السنة الرابعة

(٣) هذا مذهب هكسلي في شرحهِ على فلسفة هيوم

تدعو النفس الى العمل تفوق الاحصاء ولو تيسَّر لنا ضبطها وتعيينها لعرفنا منها افعال الناس قبل وقوعها (١) كما نعرف من حركات الكواكب زمان الخسوف والكسوف قبل وقوعها. ولا يسعك انكار شيء من ذلك. فلو تنازع داعيان على ارادتك فاقواها هو الغالب لامحالة: كما لو اشتهى الانسان مالاً فشهوتهُ للمال تدعوهُ الى سرقتهِ واحرازه اياهُ لنفسهِ. وخوفهُ من الحرام والعار بين الناس يدعوهُ الى ترك السرقة وهو بينها عاجز لا قوة لهُ. فما دام الداعيان متساويين في القوَّة بني الانسان في حال التردُّد ولكن حالما يغلب احدهما على الآخر — اي حالما يزيد تأثير احدهما في نفسهِ على تأثير الآخر — يعمل الانسان بهِ. ولا فرق في ذلك بين الانسان وبين حديدة يتغالب عليها مغنطيسان فايهما غلب اجتذبها اليهِ قسراً رضيت ام لم ترضَ. وهذا هو الحكم الصحيح الجاري على بني البشر فان كلَّ افعالهم صادرة من الطمع او البخل او الحسد او حب النفس او الكبرياء او الصداقة او الشهامة او المروءة او نحوها من الدواعي التي ينال كل فرد من افراد البشر نصيبهُ منها على ما قسمت لهُ اخلاقهُ واحوال حياتهِ وعوائد قومهِ. وما احسن ما قالتهُ احدى مشاهير النساء (٢) "اني لست الاَّ نتيجة طبيعتي أُساق الى فعل افعالي كما تُوجِّه الابرة المغنطيسية الى الشمال او تجرُّ العُوبة المشعوذ مجيطٍ من القطن فلا قدرة لي على تغيير ارادتي ولا استطاعة على ان اكون غير ما انا اه" وعليهِ فلا يُلام الطائح ان لم يجعل النفس مدبر الجسد ولا يحجّ مجريَّة الارادة طابق ذلك وجدان الكائح ام لم يطابق

فهذا ما جادت بهِ القريحة في هذا الشان مع قصوري عن المكافحة في هذا الميدان قصدت بهِ احقاق الحق وازهاق الباطل. ان الباطل كان زهوقاً. فقال الاخيار ان كانت قد صفرت منك الوطاب فعندي الجواب على الباب التابع في التابع

النبات المفترس

لا بد ان يظهر عنوان هذه المقالة غريباً لدى جم غفير من قرَّاء جريدتنا لِمَا قام في اذهانهم من ان الافتراس من لوازم الحيوان. ولكن قد ثبت بالامتحان المتواتر ان بعض النبات يغتذي بما يفترسهُ من الحشرات كما يغتذي الحيوان المفترس. وهذا من جملة الادلَّة على ان الحدود التي حدَّ بها القدماء الحيوان والنبات فاسدة اما لنقص في استقرائهم او لانهم ظنوا ان خالق هذا الكون سجانهُ فصل بين الموجودات فصلاً تامًّا فبنوا حدودهم على هذا الظن. وكيف كان الامر فقد اخذت حدودهم تتقوَّض واحدًا بعد الآخر. هذا ولنرجع الى ما كنا بصددهِ وهو وصف النبات الذي يفترس الحيوان

(١) هاتن في فلسفتهِ العقلية (٢) مس مارتينو